الأموات يرثون أحيانًا

هيام عبد العزيز(*)

أ. تقديم:

إن تحدّي رواسب الموروث الثقافي التقليدي، وكشف الأشكال المختلفات التي تتخفى بها ثقافة التسلط واجب المفكر الموضوعي المحايد، والذي عليه أن ينفذ إلى لب الحقائق والتخلص مما يعلق بها من عوالق التعصب والجهل والجمود.

ولكن هل يستطيع هذا النوع الراقي الرفيع من المفكرين عندما يبدأ في التعامل مع الموضوع أو الإشكالية التي تؤرقه أن يعزلها هي الأخرى عن شوائب الموروث وعوالق السلطة الموروثة، والتراكمات التي تكاد تطمس معالم كثيرٍ من الحقائق، وتُفقد كثيرًا من الجواهر والأصول هويتها، وتستبقي العوارضَ والوقائعَ المدسوسة وتداعياتها في معظم أمور المعرفة الإنسانية بوجه عام، والدينية بوجه خاص؟

إن الدين هو الإطار الثقافي الذي صاحب الإنسان منذ نشأته على مدى العصور. ومنذ فجر التاريخ تميز الإنسانِ بالتدين؛ فالتدين إذًا

(*). باحثة ماجستير، قسم الفلسفة، آداب القاهرة. hayamabdelaziz@yahoo.com

عنصر أساسي في تكوينه، ويتميز الدين عن أشكال الثقافة الأخرى بكونه خبرة اجتماعية ينقل الأفراد في شباكها خبراتهم المنفردة إلى بعضهم البعض على المستوى المكاني، ويتوارثونها جيلًا بعد جيل على المستوى الزماني، ليجد الأفراد أنفسهم بعد ذلك مضطرين إلى الاتحاد بالجماعة بل وفهم وتفسير خبراتهم الفردية من خلال الوعي الجمعي.

وهو السبب كما نرى في قدرة الدين على محاصرة الوعي الفردي، والتأثير عليه بأشد مما في وسع أنماط الثقافة الأخرى، وذلك بالمرور من مرحلة الوساطة إلى مرحلة السلطة، لكن الأزمة تظهر في الواقع حين يوكِّل ذلك الفرد من ينوب عنه في مهام التفكير والإدراك والإحساس، ليلعب دور الوسيط بين العبد والرب بأشكال متنوعة ليست كلها على الصورة ذاتها من الوضوح والبساطة، مما يتطلب للكشف عنها آليات الحفر والتنقيب الفكري والأيديولوجي والتاريخي والنصّي لإزاحة الستار والغبار عن أصولها الاجتماعية ودوافعها النفسية ومنطلقاتها الواقعية.

٢. من الوساطة إلى السلطة :-

إن حاجة الإنسان إلى الوساطة بينه وربه متأصلة في نفسه منذ عهد الفراعنة والإغريق بل منذ عصر عباد الطواطم وحتى اليوم، ولكن بصور متفاوتة حسب القالب التشريعي لكل دين.

فإن من العملي والموفّر للوقت والجهد انتخاب من يتطوعون لمهمة حراسة العقيدة وأداء الشعيرة، ليصبح هؤلاء أنفسهم مع التراكم التاريخي جزءًا من العقيدة التي تطوعوا لحمايتها، مما قد يؤدي بهم إلى التدخل في معنى النص عن قصد أو دون قصد أو دون فهم تبعًا لذاتيتهم. مثلًا كان من المستحيل عند الفراعنة أن تقدم القرابين للرب من دون استئذان الكهنة، حتى أصبحوا وزراء الرب، بل زادوا عليه أهمية في كثير من الأحيان نظرًا لالتحامهم بالمتعبدين مباشرة.

وشيئًا فشيئًا تحولت الوساطة من قبل رجال الدين في شتى صورها إلى سلطة دينية بدءًا من حراس المعابد المنكشفين على الإله، إلى مفسري القصد الإلهي من النصوص الدينية، إلى مؤولي النص المقدس ليخدم مصالحهم أو على أقل تقدير رؤاهم التي أصبحت هي الأخرى مقدسة.

٣. منطق التسلط الديني:

أ-البعد النفسي التسلط الديني:

إن البشر هم الذين كبلوا أنفسهم بالسلطة الدينية كنوع من الحماية أو الاحتواء، أي أن الأديان نزلت على بشر لوثوا أنفسهم بأنفسهم، بأنواع القهر والاضطهاد كطريقة سهلة وحل أمثل لضمان استمرارهم في الحياة بطرق وأشكال متعددة منها :

(١) "الاتباع" لمن هم أقوى كما قال القرآن : ﴿ **وبرزوا لله جميعًا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله...**﴾[١] "نلاحظ ثلاث كلمات: "الضعفاء – استكبروا – تبعًا" كلها تدل على سيكولوجيا الاتباع التي تنشأ حين الاعتراف بوعورة طريق الاستقلال الفكري.

(٢) "**الاحتواء**" :احتواء الأدنى في الأعلى، وتتدرج هذه العلاقة حتى تصل لعلاقة الفرد مع الرب كنوع من الراحة لإلقاء عاتق المسئولية على غيرنا وهي المسماة بـ "التواكل"في التراث الإسلامي.

(٣) "**الحماية**" وهي علاقة شائعة بدأت في السياسة من علاقة الحاكم بالمحكوم، ثم تسلسلت إلى الدين عن طريق رجال الدين، وبدأت في علم الاجتماع عن طريق العقد الاجتماعي، ثم دخلت منه إلى الحياة السياسية بصورة شرعية حتى وصلت إلى شكل عرف طبيعي داخل المجتمعات، مارسها الاستعمار كحيلة تقليدية مثل الحماية البريطانية على مصر والهدف الأساسي استغلال ثروات البلاد، مثلما أن هدفها الأساسي على مستوى الأفراد استغلال ثروات الفرد المادية والنفسية، وتمارس بكافة أشكالها ابتداء من الأسرة إلى المؤسسات الاجتماعية، وحتى العلاقات الاجتماعية

---

(١). {إبراهيم /٢١}.

الاختيارية، وكلٍّ من يمارسون علينا الحماية السلطوية بحجة أنهم يعرفون مصلحتنا أكثر، وقادرون على حمايتنا من أنفسنا.

(٤) "**الاستسلام للموروث**" وهو مختلف عن الاتباع، فالاستسلام للموروث الديني صاحب الإنسان منذ نشأته وهو أخطر من الاتباع فإذا كان الاتباع هو استسلام مقصود فالاستسلام للموروث هو استسلام غير مقصود، أي حالة من سلب إعمال العقل وتفي التغير أو الصيرورة التي تحال إليها الأشياء في الكون، هو الثبات والديمومة المتسلسلة من جيل إلى جيل، والخروج عنها يحتاج إلى معجزة أو انقلاب من الداخل إلى الخارج، فعندما يخرج عنها المتسلَّط عليه دينيًا تعلن الحرب على هذا المارق أيما كان نوع الخروج، فمن الجائز أن يكون خروجًا بسيطًا في حدود الدين نفسه ولكنه في النهاية خروج عن الموروث يستحق العقاب، بدءًا من التعذيب حتى القتل فينتهي التدين عند الكثير من الناس إلى مجرد أداة تعريف أو هوية مثل التذكير والتأنيث والمهنة.

" يرى فرويد أن الدين ينبع من عجز الإنسان عن مواجهة قوى الطبيعة من الخارج، والقوى الغريزية داخل نفسه، وهكذا بدلًا من التعامل مع هذه القوى عن طريق العقل، يتعامل معها بعواطف مضادة وبقوى وجدانية أخرى، فيتعامل الإنسان مع القوى المهددة له بنفس

الطريقة التي تعلم بها وهو طفل أن يتعامل مع شعوره بعدم الأمان وذلك بالاعتماد على والد يعجب به ويخافه"[1].

وهناك من يرى أن الأديان على العموم خصم الحياة مثل البراهمة والفيديين وغيرهم من أتباع النحل، وبعض المفكرين والفلاسفة أمثال ديفيد هيوم، لأن الحياة في نظره لم تبلغ مستواها العلمي والعمراني الراقي إلا بعد ما تخلصت من إيماءات الدين، واهتمامه الملح بما بعد الحياة لا بالحياة نفسها. لكن هذا ليس صحيحًا في أديان أخرى تؤكد أن هناك علاقات وثيقة بين تمام الإيمان وحسن النظر والعمل في الكون والحياة، وأن الإيمان الصحيح يبدأ من التفكير في الكون.

ب- البعد الاجتماعي للتسلط الديني(الوظيفة المقدسة):

ينبغي أن نتعرف على الدور الحقيقي والوظيفي لرجل الدين حتى نحاول إيضاح غرضه الحقيقي والفاعلية التي يمارسها في تشكيل الوعي الديني، فوظيفة رجل الدين الحقيقية هي التنوير وتشجيع الناس على التسامي والرقي، والعمل، والأخلاق الحميدة، والتواصل مع المجتمع؛ لضمان أمانه وتراحمه واستمراره بكافة الوسائل التي تبررها الأخلاق والشرائع المنبثقة من هذا الدين، تارة بالترغيب بالأمجاد

---

(1). رشاد علي عبد العزيز: "علم النفس..."، دار المعرفة، القاهرة، طبـ١، ١٩٩٣،صـ١٥ : ١٦.

السماوية والجنة، والتواصل مع الرب، ونظره للعبد بعين الرحمة وإصلاح شئون العبد الدنيوية، وتارة بالترهيب بعذاب الدنيا والآخرة، وذلك حتى يكون المتدين قدوة ومثالًا للعابد الزاهد القويم المتمسك بتعاليم الدين.

فالقدوة ضرورة لتربية المجتمع؛ لأن الدين هو الذي يصنع المجتمع وليس العكس، وهو الذي يحدد سماته ومقوماته لكونه منهجًا إلهيًا مقدسًا اقتنع الأفراد المؤمنين به أنه أرسل من الإله للنهضة بالبشرية بشكل يرتضيه الرب في الدنيا والآخرة.

ولكن شيئًا فشيئًا تحول بعض رجال الدين من العبودية إلى الأنانية، ومن الاستسلام والخضوع لأوامر الدين إلى التسلط والتحكم.

ج- البعد المنطقي للتسلط الديني(صورة الأمر الديني) :

إن التسلط علاقة بين طرفين: متسلط وهو الأقوى، ومتسلط عليه وهو الحلقة الأضعف في الصراع، وتأتي الأوامر"أحادية"من المتسلِّط، و"رأسية" من أعلى إلى أسفل، لهذا يكون المتسلِّط أكثر نشاطًا وإيجابية في تشكيل سلوك الجماعة، وهذا الأمر أحادي المتجه كما هو أحادي أو ثابت المحتوى بطبيعته الصورية، فهو ممتنع على التغيُّر حتى من قِبل صاحبه وإلا اعتُبرَ متذبذب الآراء، وخسرَ موقعه المقدس، ومن هنا

نفهم علة انزعاج الكثير من الفقهاء والجمهور من تعدد وتضارب الفتاوى واستنكار البعض منهم تغييرها على مستوى الفرد والجماعة.

٤. التسلط/التعصب/الدم: تطور السلطة الدينية:

من التسلط ينبثق مفهوم التعصب الديني؛ لأن المتسلِّط الديني يقوم بعمل القائد للجماعة الدينية، فهو يقوم بدور الفقيه، والموجه، والمرشد، والدال، حسب النص الإلهي - كما يقول- والذي تصدقه الجماعة أحيانًا كثيرة بلا تفكير، وهو من ناحيته يتلذذ بهذا الدور يعيشه ويصدقه، فيكون هدفه إبقاء وضع الجماعة مستقرًا، فيحثهم على العصبية للدين، والانتماء له والتضحية بالغالي والثمين من أجله.

ورغم ما لذلك الانتماء وتلك التضحية من أهداف نبيلة من قبل ضحية علاقة التسلط، وهي الحفاظ على كرامة الدين وانتشاره بسبب نزاهته وأفضليته ومصداقيته على كل الأديان الأخرى، إلا أنها تستغَلّ لأغراض الدنيوية متخفية بعباءة الدين لتحقيق المصالح الفردية، التي تبدأ من خدمة الدين والحفاظ عليه لتنتهي بتسييسه لمصالح المتسلِّط أو القائد.

ولنقرب هذا الكلام من الواقع والمثال الحي علينا تطبيقه على نماذج الأديان الإبراهيمية الثلاثة "اليهودية، والمسيحية، والإسلام"، نظرًا للصلة الوثيقة بينها من حيث تواتر أسماء الأنبياء، واتفاقها على أنهم

من نسل إبراهيم عليه السلام، وإيمان أتباعها بالبعث والحساب، ويوم القيامة، والتوحيد لإله واحد، وغيرها من الأصول والثوابت المتشابهة، مع وجود اختلافات جوهرية بطبيعة الأمر.

أولًا: **اليهودية**: إن الأمة اليهودية قديمًا لم يعد لها وجود منذ فقدانها لاستقلالها السياسي، لذلك ارتبط الإنسان اليهودي ارتباطًا وثيقًا بالمعابد فكان ينطق بلسان حاخاماتها، وكانت الرؤى الشعرية والبلاغية للحاخامات، والنتاج العفوي للإنسان اليهودي المتدين قد اكتسبت قداسة في الأدب اليهودي، بل والأخطر من ذلك أنها أصبحت جزءًا من تفسير الحاخامات لنصوص العهد القديم(١).

ولمزيد من الإيضاح يمكننا على نحو آخر القول بأن الديانة اليهودية تتكون من شقين أحدهما **ثابت** والآخر **متحول**، الشق الثابت هو النص الموحي به وهو يبقى عندهم كما يقولون ثابتًا دون تغير، أما الشق المتحول " فيشمل الشروح، والتفاسير، وتعليقات الحاخامات"، فمن الطبيعي أن يتأثر بالمؤثرات الخارجية، والأفكار الدخيلة والذاتية التي تدفعهم لفهم النص على نحو مغاير لفهم الأقدمين، والتي قد تتمثل في الرغبة في تكييف النص لاحتياجات الجماعة. وخلاصة القول أن هذه التفاسير تعد بطبيعة الحال نتاجًا بشريًا، ولكن ارتباطها بالنص

---

(١). لويس جنزبرج: "قصص اليهود"، ترجمة جمال الرفاعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبـ١، ٢٠٠٢، صـ٤٥.

الديني يجعل لها قداسة تتجاوز حدودها الحقيقية؛ نظرًا لارتباطها بمصالح العقل الجمعي اليهودي والظروف السياسية والاقتصادية.

" قد تكون اليهودية من أكثر الديانات التي تتماهى فيها الحدود الفاصلة بين المقدس والدنيوي"(١). والحاخامات هم جملة العلم اللدني وهو بذلك لا ينقطع حتى انقطاع الخليقة، بل هم مرشدو الرب، وعلى اليهودي الانصياع لأوامرهم بصورة مطلقة؛ " لأن اليهودي لا فرق عنده بين المدرسة، والمعبد، والمنزل، وهو يدرس في المعبد ويتعبد في المنزل ودارسو التوراه ليسوا منعزلين عن المشاركة في الحياة"(٢). فهدف بني إسرائيل ليس تطبيق "شريعة موسى" بل جمع المال، والسلطة، والتعالي بحجة أنهم الأفضل، وامتد هذا التفكير المادي المنبثق من الشريعة المدسوسة إلى العلماء والذين ربطوا الغفران برضا الحاخامات ودعائهم.

وهكذا أصبح الحاخامات غير منشغلين بالأسس النظرية للشريعة بقدر انشغالهم بتنظيم أمور اليهود وحياتهم.

ثانيًا: **أما في المسيحية** فقد علمنا عيسى عليه السلام دينًا روحيًا بسيطًا مع وجود نصائح وتوجيهات خلقية وردت في الأناجيل لإرشاد البشر

---

(١). المرجع السابق: صـ١٢

(٢). المرجع السابق: صـ٤٦.

فـي كـل زمـان ومكـان، بهـدف إرساء روح الإخاء والمحبة والسلام بين البشر.

"فجـاءت دعـوة المـسيح تحـارب اتجاهـين تأصلا عند اليهود، أولهم شـغفهم بالمـادة وإهمـالهم الناحـية الـروحية فـيهم، والثاني ادعائهم أنهم شـعب مخـتار وادعـاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس، ومن هنا أراد الله بمعجـزات عيـسى علـيه الـسلام إعلاء الناحية الروحية بمعجزات من نـوع مـولده ترمـي إلـى إحـياء الناحية الروحية وإقامة الدليل على وجود الـروح تلـك التـي أنكـرها كثيـر مـن بنـي إسرائيل قبل عيسى، وأنكر بعـضهم القـيامة والحـساب وانغمـسوا فـي ملذات الدنيا محقرين من شأن باقي البشر"(١).

فدعـوة المـسيح التـي أعلـنها كانـت إصلاحًا خلقيًا ودينيًا روحيًا، فلم تتـصل دعـوته بالـسياسة لـذلك لـم يـستحق غضب الرومان عليه، ليس ملكـوت الله حـزبًا سياسـيًا أو اجتماعـيًا، إنما هو حالة نفسية روحية تقوم علـى نـبذ الأنانـية والاعتـصام بطاعـة الله كمـا جـاء فـي إنجيل لوقا الإصـحاح ١٧ " لا يقـال ملكـوت الله هـنا أو هـناك لأن ملكـوت الله في

(1). أحمد شلبي: "المسيحية"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبـ١، ٢٠٠٢، صـ٦٦: ٦٧ "بتصرف".

داخلكم"، فالزهد والرضا بالقدر هو لب العقيدة المسيحية على عكس اليهودية.

" أما مسيحية ما بعد المسيح فجاءت مختلفة بخاصة عندما دخلها القديس بولس فقال بالتثليث وألوهية المسيح، ومن نتاج هذا الذي يعد أكبر دليل على بعدها عن مسارها الأول الحقيقي هو حركة الاضطهادات والقتل والقسوة بين المسيحيين بعضهم البعض من ناحية والمسيحيين وسواهم من ناحية أخرى"(١).

ما يبين الفرق بين مسيحية ماقبل بولس وما بعده ذلك الفرق بين التسامح الذي يصل إلى حد الرضا بالعدم، وهو ما يرويه لوقا ومتى من قول المسيح "من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر"، " ومن أخذ ردائك فلا تمنعه ثوبك "(٢). وتلك الحروب الساحقة والاضطهادات الدينية على مرّ التاريخ المسيحي" فهذا التحول يمثل التحول من أفكار عيسى إلى بولس ليظهر تدريجيًا أباطرة التسلط والقسوة".

"ففي عهد تيودوسيوس (٣٩٥م) ظهرت لأول مرة محكمة التفتيش وكانت مركزًا بشعًا للاضطهاد والتعذيب وكان أعضاؤها من الرهبان ووظيفتهم هي اكتشاف المخالفين للعقيدة سواء كانو مسيحيين وهم على

---

(١). المرجع السابق: صـ٨٩.

(2). الكتاب المقدس: "لوقا من ٦ ك ٢٨، ومتي من٤١:٣٨".

أول القائمة أو غيرهم، وكان لهم سلطان كبير ولا يسألون عما يفعلون مما نشر نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

وتوالت في القرون التالية موجات الشنق والحرق والإعدام، لأنهم في نظر الكنيسة "هراطقة" حتى وصل الأمر إلى الإعدام البطيء مبالغةً في التنكيل مثل ما حدث مع بنيامين كبير أساقفة مصر، لأنه رفض الخضوع لقرار مجمع نيقية الذي يرى أن للمسيح طبيعتين إلهية وإنسانية فسلطت الشموع على جسمه وخلعت أسنانه هو وكثيرون غيره !!"[1]

ولا نغفل أيضًا الحروب الصليبية على المسلمين وفي الأندلس وما فعله الاستعمار المسيحي بالدول الإسلامية، ونحن نأسف إذ أفردنا هذه السطور لهذا الوجه الآخر من المسيحية التي هي دين الرحمة و التسامح والإخاء.

فتسلط الكنيسة وآبائها -في وقت من الأوقات- على روح الشعب المسيحي وتوجيهه حيثما تريد، هو السبب الرئيسي لهذه المآسي فوضعت ما وضعت وشرعت ما شرعت.

إن المسيح قد دعا للصلة المباشرة بين الله والناس وتكلم عن ملكوت الله المفتوح لجميع الصالحين الذي كان كما قال Wells ضربة للولاء

(1). أحمد شلبي: "المسيحية"، مرجع سابق: صـ٩٦: ٩٧.

للعائلة الإسرائيلية المنغلقة عن جميع البشر، صاح عيسى عليه السلام بهذا الاتجاه لاكتساح طوفان الأفضل بحب جارف من الله للعبد والعكس ضد كل العواطف المنغلقة والوساطات والرهبان، فملكوت الله بهذا المعنى هو معارضة واضحة لدَعْوَى اليهود بالاختيار والامتياز.

ثالثًا: **الإسلام**، لا معزل للإسلام عن ذلك، فقد حدث فيه ما حدث في غيره، واتبع المسلمون سنن من قبلهم.

فالإسلام آخر الأديان الإبراهيمية قد ظهر في وسط جاهلي كثرت فيه الفواحش والظلم والاقتتال، وفي أمة من الغوغاء الهمج الذين خلوا من بصمات حضارية مهمة مثل بعض الأمم السابقة عليهم عدا الملكات اللغوية والشعرية التي أبدعوا فيها أيما إبداع، لذلك نزل القرآن معجزة بيانية لأهله ووقفوا أمامها مشدوهين، جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) بكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة في صورة مبادئ كلية عامة شاملة لكل أصول الحياة الإنسانية، واضعًا في اعتباره الجزئيات المتجددة والمتغيرة دون أن تفارق أصولها الأولى، فقام المجتمع الإسلامي على القرآن والقدوة الحسنة والمبادئ الأخلاقية الإنسانية لكافة البشر.

وقد وضع القرآن الأسس العامة للمجتمع مغطيًا كافة جوانب الحياة اليومية، فالتشريع من أهم ما جاء به الإسلام ليكتفي به المسلم البسيط القارئ له في معظم أمور حياته.

جاء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم شمل العرب وقادهم وهو النبي المنزه المعصوم، أما فيما حدث بعد وفاته من تغيير لقانون الخلافة الإسلامية فهو السبب في تمزيق شمل هذه الأمة "لأنها تجربة جريئة تصل إلى حد المغامرة ولم يكن من الممكن أن تصل إلى غايتها"[1] نظرًا لاعتبارات كثيرة منها طبيعة المجتمع القبلي آنذاك وتشربه العصبية والتقاليد الجاهلية ووفاة النبي الذي وحدهم والذي لا راد لكلامه.

وما حدث في عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من حروب ردة وصراعات وانتقادات كان بذرة سقيت ونضجت تدريجيًا وآن أوان قطف ثمارها، بدءًا من عصر الفتنة الكبرى عصر سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ومقتله وصولًا إلى عصر سيدنا علي (كرم الله وجهه)ومقتله، وتوالت النكبات، كل جماعة تعين لها قائدًا هو الأحق بقيادة الأمة الإسلامية ويكون أميرًا للمؤمنين، وصولًا إلى مذابح أبي العباس عبد الله بن محمد بن عباس المعروف بالسفاح، والذي"كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني

(١). طه حسين: "الفتنة الكبرى: ١-عثمان"، دار المعارف بمصر، طبـ٤، صـ

أمـــية ومـــع غيـــرهم مـــن أولـــياء الدولـــة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها"[1].

وهكـــذا تطـــور الأمـــر مـــن أمة أراد الله لها الوحدة ﴿واعتصموا بحبل الله جمـــيعًا ولا تفـــرقوا﴾ إلـــى أمـــة مـــشتتة انقـــسمت شـــيعًا بسبب التسلط الدينـــي علـــى أبـــناء هـــذه الأمـــة وتأويل النصوص لخدمة مصالح مجرمي وأغنياء الحرب الدينية.

وقـــد استعرضـــنا ثلاثـــة نمـــاذج متبايـــنة تمامًا ولكن بسبب التسلط على أبـــنائها مـــن ناحـــية وعلـــى مـــن هم في الأديان المغايرة من ناحية أخرى انـــتهت جمـــيعًا إلـــى التعـــصب والحـــروب وادعـــاء التميز على الشعوب الأخـــرى بحجـــة الأفـــضلية. وبعـــد أن تـــسببت الحـــروب الدينية في مقتل ملايـــين الأبـــرياء تحـــت شـــعار الـــدين أصـــبح الدين تعويذة سحرية ترجع الميت إلى الحياة والحي إلى الموت.

5. الآثار السلبية للسلطة الدينية :

تظهـــر تداعـــيات الـــسلطة الدينـــية أيـــضًا علـــى الأفراد المتسلط عليهم نتـــيجة الـــصراع الباطنـــي داخـــل الفـــرد، مثل الاغتراب الديني للفرد داخل

(1). الشيخ محمد الخضيري: "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية...." طبـــ١، ٢٠٠٤، صـــ٥٨

المجتمع أو الانسحاب الكامل إلى الداخل لينعزل الفرد تمامًا عن الصراع الدائر حوله، فيستسلم لمجريات الأمور، ينفي الحياة إلى ما بعد الموت، كما يظهر التدين الزائف(النفاق)لخدمة أغراض شخصية، ووضع أقنعة فكرية إجبارية تؤدي بالفرد في النهاية إلى الجمود وانهيار المعتقد الديني لدى الفرد ليصبح الدين مجرد وسيلة لكسب العيش أو استمرار الحياة في واقع شبه جاهلي يسوده منطق الاضطهاد والاستبعاد والتكفير والحرمان.

وعلى العكس تمامًا هناك مرض الانصياع التام للأوامر وفقدان القدرة على النقد والتجاوب المغالَى فيه أي: السلبية الدينية وهذا أمر خطير حتى على الدين نفسه، لأن الفرد غير الناقد قد يقع فريسة للمغرضين من أعداء الدين، أو للمتشددين ويصبح قنبلة موجهة إلى الدين نفسه. وهناك من يصاب برفض مطلق للأوامر يضعه في حالة نفسية انفعالية تؤدي به أحيانًا إلى الإلحاد والكفر بالأديان أو البحث عن دين آخر، باعتبار أن الدين على حالِه آفة أدت إلى صراع وتفكك المجتمع وحولت أفراده إلى قطيع مقطوع الألسن.

٦ . رياح التغيير :

وبعد كل هذه التداعيات والسلبيات للسلطة داخل الأديان آن الأوان لبدء رياح التغيير التي تبدأ من داخل الفرد إلى خارجه، والقائمة على ثقافة المنهج العلمي والحوار العقلاني المحترِم للرأي والرأي الآخر،

البعيد عن التعصب، الآخذ بكلِ من " **دع ما لقيصر لقيصر**"، " **لكم دينكم ولي دين**"، " **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**" وهذا يبدأ من الآتي :

١- **داخل الأسرة** : تقوم الأسرة بغرس قيم الدين داخل الطفل مع توعيته بوجود أديان مغايرة وأن عليه احترامها حتى يحترم الآخرون دينه ودين آبائه، وأن يكون قدوة ومثلًا حسنًا لدينه، لأنه واجهة له في كل وقت، بتحسين أخلاقه ومشاركة رفاقه من أتباع الأديان الأخرى في الزمالة والتعاون والتهنئة بالأعياد.

٢- **المؤسسات التعليمية** : المدرسة هي المؤسسة التي تضع اللبنة الأولى في تشكيل وعي الطفل بالعالم الخارجي، لذلك يلزم الاهتمام بمنهج التربية الدينية وإبراز صور الإخاء والتعاون والتسامح داخل كل دين، وأيضًا الاهتمام بمادة السلوك والأخلاق والتي تجمع فيها أتباع كل الأديان، وتعلمهم السلوك الإنساني، وتعرفهم أن الإنسان بطبيعته كائن أخلاقي راقٍ، وتكثر من الأنشطة المدعمة لهذه القضية، ويستمر هذا النشاط إلى الجامعة مع توسع النشاطات والمادة العلمية التي تناسب عقلية الطالب في هذه السن، مثل عمل ندوات وإنشاء جماعات مشتركة لأديان مختلفة وغيرها من الأنشطة التي تحفز الطالب على توثيق

العلاقة بالآخر، وتنمي عنده ملكة الحوار والنقد البناء وتقبل الأغيار والتعامل معهم بصورة متوازنة.

٣- **وسائل الإعلام** : فالإعلام سلاح خطير ساحر لما فيه من جذب وتشويق وما له من جمهور عريض في كل المجالات، فعليه أن يعي بدوره لمَّ شمل الأمة وتوثيق الروابط بين عناصرها، فمثلًا على الصحافة التي هي فعلًا السلطة الرابعة على العقل الجمعي والرأي العام التربوي نشر روح الحوار، وتطوير وسط فكري منفتح، لأن الاختلال في دورها ليس من شأنه فقط ارتكاب جريمة ولكن إشعال فتنة طائفية، بل وقيام خرب كبرى تنهي أمة بأكملها بأيدي أبنائها، كما يجب التأني في نشر بعض الأخبار وتحكيم العقل فيها أولًا، فالأمانة مع القارئ مطلوبة ولكن يجب الوعي بأن كاتب المقال أو الخبر الصحفي الذي هو في مستوى ثقافي معين يختلف عن القارئ العادي والمواطن الأمي الذي يحكم على الأمور بسطحية وسذاجة فيثور وينفعل لدرجة التعصب والغوغائية.

٤- **المثقفون**: الذين هم أعمدة الأمم ونجبائها وفلذة أكبادها لهم دور مهم في توعية المواطن العادي وتنظير الواقع بل وإعادة تشكيله، وهم الأقدر على ممارسة الحوار الحضاري واحترام الفروق العقائدية، دون الانجراف مع دعوى العولمة التي تنادي بطمس

هـذه الفـروق لـصالح قطـب أوحد يمارس أبشع أنواع التسلط الديني واللادينـي كلـيهما، كمـا أن علـى المـثقف أن يعيَ أن ثقافة المنهج العلمـي هـي الـضامن لـسيادة روح الموضـوعيةِ علـى المستوى النظري، والحوارِ على المستوى العملي السياسي والاجتماعي.

٧. خاتمـة:

أخيـرًا يمكـن صـياغة قـواعد مبدئـية لمنطق الحوار واحترام الآخَر الـذي مـن شـأنه أن يـؤدي إلى احترام حرية الأديان وكفالة حرية الاعتقاد والعـبادة لكـل فـرد، ونلاحـظ أن هـذه القـواعد متمثلة إلى حدٍ كبير في صـحيفة المدينـة ممـا يثـبت تأصلها في الشرع والفقه السياسي الإسلامي، وذلك كما يلي:

١- الاعتراف بحرية الاعتقاد.

٢- الاعتـراف بحـق المـشاركة لجمـيع الأديان في الدفاع عن الدولة وفي نفقات الدفاع.

٣- تفعيل سلطة القضاء لحل النزاعات-بين-الدينية.

٤- تأكيد الصفة التعاقدية التي للدستور.

٥- الاهتمام بالثقافة المنهجية العلمية تنظيرًا وتعليمًا وممارسةً.